طه حسين: الوثائق السرية

إبراهيم، عبد الحميد.

طه حسين: الوثائق السرية / تحقيق وتقديم عبد الحميد إبراهيم، ط١. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٦. ١٠٧٨ص؛ ٢٤سم.

عرض

أ. نبيل فرج

كاتب وناقد

لم تهتم أسرة طه حسين بأوراقه الخاصة التى خلفها، واكتفت بحفظها كيفما اتفق فى حقائب سفر، دون تحقيق، ودون نشر.

وعندما استشعرت الأسرة ما يمكن أن يضيفه هذا الكنز المهمل من الوثائق إلى تاريخنا الثقافى، وليس فقط إلى طه حسين، بادرت بإهداء بعض هذه الوثائق، فى ذكرى ميلاد طه حسين ورحيله إلى من توسمت فيهم القدرة على تحقيقها. وأهدت ما تبقى منها، مع مقتنياته الخاصة، إلى متحف طه حسين «رامتان» بالهرم عند افتتاحه فى ١٩٩٦.

ومن الذين حصلوا على الجزء الأكبر من هذه الوثائق الدكتور عبد الحميد ابراهيم، عندما كان ينظم فى جامعة المنيا احتفالا سنويا لطه حسين تدعى اليه أسرته. واستطاع عبر هذا الاحتفال الذى تجاوز ثلاثة عشر عاما أن يجمع كما كبيرا من هذه الوثائق التى لاتقدر بثمن، وقدمها للقراء فى مجلد ضخم صدر عن دار الشروق فى ورق فاخر وطباعة جيدة.

وكان قد سبق لكاتب هذه السطور أن تلقى من أسرة طه حسين مجموعة من هذه الوثائق، أهديت إليه بصفته الشخصية، وصدرت فى كتابين من كتب الهلال فى١٩٩٤ و٢٠٠٤، ويعد للطبع كتابا ثالثا يضم رسائل الأدباء المصريين والعرب إلى طه حسين.

وأصول هذه الكتب الثلاثة مع كثير غيرها من الوثائق والمخطوطات التى لم أتمكن من إعدادها للنشر أودعت فى ١٩٩٨ دار الكتب والوثائق القومية، أثناء جمعها لمقالات طه حسين المتفرقة فى الدوريات الصحفية القديمة لإصدارها فى كتب.

وتتعين الإشارة إلى أن الكثير مما ورد فى كتاب عبد الحميد إبراهيم «طه حسين الوثائق السرية» نشر من قبل فى كتاب «أوراق طه حسين ومراسلاته» الذى صدر عن دار الكتب والوثائق القومية (وحدة البحوث الوثائقية) فى ٢٠٠٥، بإشراف ودراسة الدكتور أحمد زكريا الشلق والدكتور محمد صابر عرب.

كما حصل الكاتب الصحفى إبراهيم عبدالعزيز من أسرة طه حسين، فى وقت لاحق، على مجموعة من هذه الوثائق وأصدرها فى كتاب سنة ٢٠٠٠.

وبغض النظر عن أن الدكتور عبد الحميد إبراهيم فاز بنصيب الأسد من هذه الوثائق فانه لم يحققها ولم يدرسها كما هو منتظر من أستاذ جامعى، ولم يعرف بكتابها وبظروف كتابتها فى ظل الحركة الوطنية والاجتماعية والسياسية والثقافية المعاصرة لها، وإنما نشرها فى الكتاب كما هى بلا تعليق من أى نوع، ونشر بعضها بدون كلمة تقديم تساعد على فهمها وتذوقها، مثل رسائل سليم حسن، مصطفى الديوانى، زكى مبارك، سيد قطب، عبد الله الطيب، محمد رفعت، وغيرهم من الأدباء والعلماء الذين اتصلوا بطه حسين، وكانوا من المقربين إليه.

ولاشك أن هذه الوثائق كان يمكن أن تقدم بصورة أفضل، لو أنها نسقت كلها فى عمل واحد، ولم توزع على أكثر من فرد، يتحرك كل منهم بمنأى عن الآخرين.

ومع هذا فإن الاختلاف الحاد فى إعداد وتقديم هذه الوثائق، حتى لو كانت النصوص واحدة، قد يبرر وجود هذه الكتب، ويجعلها متكاملة، وليست تكرارا أو هدما لبعضها البعض، نتيجة اختلاف مواقف محرريها من طه حسين.

وفى مجلد «طه حسين الوثائق السرية» يقدم عبد الحميد إبراهيم هذه الوثائق بمقدمة عامة تتسم بالنظرة الجامدة التى تفتقد المعرفة الموضوعية، ولا تقبل الأفكار المختلفة، أو على حد تعبير عبدالحميد إبراهيم نفسه، فى حديثه عن الوسطية، تسعى إلى إخضاع كافة التيارات لمنظومتها الخاصة، لا التحاور مع هذه التيارات.

فى هذه المقدمة التى ترفض الكتابة العقلية والتحليل العلمى، وتعتمد على التراث الغيبى فى معالجة القضايا الحاضرة، يعرض عبد الحميد إبراهيم اللحظة التاريخية الفاصلة فى بداية القرن العشرين، التى يمثلها أو يشخصها طه حسين، واصفا ايَّاها، أو واصفا ايَّاه، بالتغريب والتشتت.

وهذا الوصف غير صحيح بالمرة، يعبر عن رؤية عبد الحميد إبراهيم أو عن منازع نفسه، لا عن الحقيقة المجردة.

ذلك أن اللحظة التى يشير إليها هى لحظة الانتقال من التخلف والجمود إلى اليقظة والنهضة. إنها اللحظة التى أخذ فيها طه حسين بالمناهج العلمية فى البحث، وفى تحرير الفكر السائد من التعصب القومى.

ومثل هذا الوصف الذى يصف به عبد الحميد إبراهيم طه حسين، مستغلا صفحات المقدمة ليطرح فيها الوسطية التى يدعو إليها، دليل على تراجعنا الثقافى، وليس مكانه المناسب كتاب وثائق طه حسين، ويتناقض النيل منه ومن تلاميذه وتلاميذ تلاميذه فى المقدمات الفرعية لفصول الكتاب مع الهدف الذى دفع الأسرة إلى إهدائه وثائق طه حسين.

وطه حسين ليس بحاجة إلى القول إنه، بتكوينه وثقافته وأحلامه وصفاء نفسه، لم يكن منفصلا عن أرضه وتراثه الذى يأخذ عبد الحميد إبراهيم على عاتقه انتزاعه منهما.

لقد كان ثمرة ناضجة للتراث والعصر. لم يستسلم للتقاليد التى تحول دون التقدم أو وقف منها ومن كل الموروثات موقف الناقد البصير، الذى يعلى دائما من الحضارة، والتمدن، والتحديث، والإبداع.

ولم تكن قضايا الحرية والديمقراطية والمرأة والتعليم والتجديد سوى أدواته وأدوات العصر فى بلوغ النهضة والتنوير، بعيدا عن تقليد التقديم، أو التبعية للحديث.

هذا هو مكان طه حسين فى تاريخنا وفى حياتنا العلمية والثقافية التى تُعد جوهر هذا التاريخ. وهذا هو المضمون الذى تعبر عنه هذه الوثائق فى مفرداتها ومجموعها.

وعلى هذا الضوء نفهم دور طه حسين، ونفهم أدبه، ونفهم جهاره وعلاقاته التى تعكسها هذه الوثائق بوضوح.

ويصل الهجوم والتحامل على طه حسين فى تقديم هذه الوثائق إلى حد وصفه بمعاداة الشرق وحضارة الشرق، واعتباره أبًا لكل التيارات المتطرفة فى وطننا العربى، من أدونيس إلى شكرى مصطفى، التى ظهرت فى رأيه كرد فعل لاتجاه طه حسين العلمانى!

ولا يسلم كتاب طه حسين «مستقبل الثقافة فى مصر» (١٩٣٨) أيضا من الطعن، رغم أن الكتاب لم يكتب إلا دفاعا عن استقلالنا السياسى الذى يقوم على الاستقلال الثقافى، وتحرير الشخصية الوطنية. ومثل هذه الأحكام التى ترد عرضا أو بعبارة صريحة، لا تغض من طه حسين وحده، ومن فكره الحر، بصفته نموذجا لكل المعانى والمضامين التى قامت عليها النهضة المصرية الحديثة، ولكنها تغض من شخصيتنا الحضارية التى ساهمت فى صنع الحضارة الغربية أو تغض من القيم العربية الأصيلة التى يلخصها طه حسين، وكافحت من أجلها الأجيال العلمانية منذ رفاعة رافع الطهطاوى فى القرن التاسع عشر، ودعت من خلالها إلى يقظة الفكر والوجدان، وإلى تجديد الحياة وتطويرها.